الأهرام

المصدر: الاتحاد

التاريخ : ٢٣ فبراير ٢٠٠٥

شبهة التورط السوري: آخر امتحان في لبنان

د. خالد الدخيل

كاتب سعودي

كان من نتائج اغتيال الحريري انهيار الهيبة السورية دفعة واحدة. ترافق ذلك مع بروز الشارع اللبناني كلاعب جديد في السياسة اللبنانية. والأنظمة العربية لا تجيد التعامل مع عامل سياسي كهذا.

في كل يوم يتأكد حجم وزخم التحولات التي تصيب المنطقة العربية. كانت هذه حال المنطقة، ومن دون توقف، منذ انتهاء حرب أكتوبر عام 1973. خلال هذه الثلاثين سنة كانت المنعطفات الحادة تتوالى على المنطقة واحدة بعد الأخرى. وعند كل منعطف تحتبس الأنفاس قليلا أو كثيراً قبل تجاوز مرحلة عنق الزجاجة. حدث بعد زيارة القدس الشهيرة، واتفاقيات كامب ديفيد، ثم الحرب الأهلية اللبنانية، والحرب العراقية الإيرانية، فالاجتياح الإسرائيلي للبنان، والغزو العراقي للكويت وحرب تحرير الكويت بعد ذلك، اتفاق أوسلو، ثم الحصار الدولي للعراق. كل تلك المنعطفات تبدو الآن وكأنها كانت أحداثاً تعتمل على تخوم المنطقة. لأن ما حصل بعد ذلك أن الأحداث انتقلت من التخوم إلى قلب المنطقة، بل إلى قلب عواصم دول المنطقة العربية. ليس هنا مجال تناول كل تفاصيل المشهد، بما في ذلك انفجار الإرهاب في مصر، والجزائر، والسعودية، واليمن.

ولعل أهم مؤشرات الانتقال المشار إليه هو بداية الضغط الأميركي على العراق، ثم التلويح بخيار تغيير النظام في بغداد، حتى جاءت هجمات ١١ سبتمبر لتضع إعلان الحرب على العراق كخيار في قائمة أولويات السياسة الخارجية لإدارة جورج بوش الابن الأميركية. عندها بدأت الضغوط الأميركية في شأن ما كان يسمى بأسلحة الدمار الشامل لنظام صدام حسين في التصاعد. كان الهدف عندها واضحاً، وهو تهيئة الأجواء لحرب قادمة. ربما أن النظام العراقي السابق فشل في تقدير الموقف. وربما أنه سقط مرة أخرى ضحية وهم بالقدرة على مواجهة الدولة العظمى. مهما كان الأمر لعبت قيادة النظام دوراً واضحاً في تهيئة المسرح في العراق وفي المنطقة للحرب التي كانت الإدارة الأميركية تخطط لها. وخلال كل ذلك حبست المنطقة أنفاسها ترقباً لما سيحدث. وفي الأخير وقعت الحرب، وسقطت بغداد، وتحول قادة النظام العراقي إلى أسرى لدى القوات الأميركية. وهذا تطور حدث في قلب العالم العربي، وعلى يد قوة أجنبية، وعلى مرأى من الجميع. لكن الجميع لا يملكون إزاء ما كان يحدث شيئاً، رغم أن ما كان يحدث لا يقل عن عملية إعادة رسم للخريطة السياسية للمنطقة، وفي وضح النهار، وبدون حاجة إلى مؤامرات تحاك في ظلام كواليس السياسة، كما حدث في سايكس بيكو.

لماذا استعادة هذا التاريخ الآن، وفي مناسبة اغتيال الحريري؟ لأن النظام السوري هو أكثر الأنظمة العربية المطلوب منها استيعاب الدرس العراقي.

فالذي يضغط على سوريا الآن هي الإدارة الأميركية نفسها، وبتفويض شعبي أميركي جديد. والذي سقط في بغداد على يد الجيش الأميركي كان الجناح العراقي للبعث، والتجربة السياسية الأكثر شبهاً من غيرها بالتجربة السورية. أضف إلى ذلك شيئين آخرين: مجاورة سوريا للعراق، ولأميركا في عصر التحولات، وثانياً أنها الطرف الوحيد الذي يصر على عدم الخضوع للهيمنة والشروط الإسرائيلية. هناك معطيات أخرى تدعم التشابه بين الحالتين السورية والعراقية، وبين مسار الأحداث آنذاك والآن. ثبت الآن وبشكل واضح أن الكويت كانت النقطة التي بدأ عندها العد التنازلي للنظام العراقي السابق. ويبدو حتى الآن أن لبنان في الحالة السورية تحول منذ منتصف العام الماضي إلى شيء يشبه ذلك كثيراً، ويفرض استحضار المقارنة بإلحاح. في الحالة العراقية كان هناك اجتياح الكويت وأسلحة الدمار الشامل. وفي الحالة السورية هناك "الاحتلال" السوري للبنان، ودعم المنظمات "الإرهابية". كل ذلك كان يمكن التعاطي معه بشكل أو بآخر، حتى جاء اغتيال الحريري ليقلب المشهد رأساً على عقب. والذي أسقط النظام العراقي السابق في نهاية الأمر، هو طبيعته الديكتاتورية المتوحشة، وتخشبه السياسي، ثم عنجهيته التي لم تكن تستند إلى شيء يقترب من تبريرها.

سوريا تمر الآن في اللحظة الحرجة. هي في حالة دفاع عن النفس يائسة، وربما مفروضة

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

عليها. لكن الأكيد أن جريمة اغتيال الحريري وضعت سوريا في أصعب مواقفها السياسية على الإطلاق منذ هزيمة 1967. أصبح مفروضاً عليها أن تواجه في لحظة واحدة المعارضة اللبنانية التي تزداد قوة وشعبية وجرأة، والشعب اللبناني وهو يطالب بخروجها من لبنان في الشوارع، وتداعي شرعية الحكومة اللبنانية، حليفها الوحيد، والضغوط الأميركية والأوروبية وهي تتصاعد بشكل يومي، والعجز العربي عن فعل أي شيء سوى تسهيل المخرج.

أين تكمن عقدة المأزق السوري في كل ذلك الآن؟ للوهلة الأولى تبدو العقدة في ممانعة سوريا سحب قواتها، وإنهاء تواجدها الأمني في لبنان. والذي يبدو هو أن القيادة السورية أصبحت مقتنعة بأنه لم يعد في إمكانها الاستمرار في هذه الممانعة بعد اغتيال الحريري، وما نتج عنه من تداعيات ضخمة داخل لبنان. الأرجح أن هذه القيادة منهمكة في هذه اللحظة في الترتيبات التي يجب أن يتم وفقاً لها هذا الانسحاب. عقدة المأزق السوري تكمن في مدى قدرة سوريا على مواجهة الاستحقاقات التي تتطلبها الجبهة الداخلية في الظروف الدقيقة الراهنة، ومواجهة شبهة التورط في جريمة الاغتيال، كما عبر عن ذلك علناً وزير الخارجية البريطاني، جاك سترو، وكما عبر عنه عدد من أقطاب المعارضة اللبنانية.

لماذا تمثل شبهة التورط هذه عقدة المأزق هنا؟ لسببين مهمين. الأول أنه يوفر شرعية لم تكن متوفرة للضغوط الأميركية، خاصة أن مثل هذا الاتهام قابل للتصديق داخل لبنان وخارجه. وحتى لو ثبت أن سوريا غير متورطة بشكل مباشر، فإنه لا يعفيها من المسؤولية بسبب طبيعة وحجم دورها الأمني في لبنان. السبب الثاني أن الشبهة أضعفت الموقف السياسي السوري داخل لبنان بدرجة غير مسبوقة من قبل، وربما قاتلة. لم يعد من السهل الآن أن تطالب سوريا بأن يتم انسحابها في إطار معادلة جديدة تحفظ لسوريا علاقتها الخاصة والمميزة مع لبنان. فإلى جانب تهمة الاحتلال، التي انفجرت شعبياً بعد التمديد للحود، ظهرت شبهة التورط في اغتيال واحد من أبرز ساسة لبنان، وأكثرهم اعتدالا، وإيماناً بخصوصية العلاقة مع سوريا. وإذا كان هذا ما حدث مع سياسي بهذه المواصفات فكيف سيكون التعامل مع الآخرين؟.

من هنا كان من نتائج اغتيال الحريري انهيار الهيبة السورية دفعة واحدة. ترافق ذلك مع بروز الشارع اللبناني كلاعب جديد في السياسة اللبنانية. والأنظمة العربية لا تجيد التعامل مع عامل سياسي كهذا، مما يضيف إلى ضعف الموقف السوري. ما هي الخيارات السورية في هذه الحالة؟ لا مفر الآن من قبول حقيقة أن الانتخابات النيابية القادمة ستأتي بحكومة من المعارضة، وأن هذه الحكومة ستطلب رسمياً انسحاب كل القوات السورية. على سوريا الاستجابة، والدخول في مفاوضات لتحديد الأسس التي سيتم بناء عليها تحقيق الانسحاب. والثاني التعامل مع التحقيق في جريمة اغتيال الحريري بكل شفافية، حتى لو أدى ذلك إلى كشف تورط سوري فيها. وفيما لو حصل ذلك يجب على سوريا تطبيق القوانين ذات الصلة، أيضاً بكل شفافية وعدل. الأمر الثالث، والذي لا يقل أهمية هنا هو مواجهة التحولات التي أصابت المنطقة، ومعها سوريا، بالبدء بوضع برنامج إصلاحي شامل يعيد تأسيس شرعية النظام السوري. هذه خيارات مرة. لكن سوريا خسرت في لبنان، وعليها مواجهة الواقع. من دون ذلك، سيبقى النظام السوري في مواجهة الضغوط معزولا ومن دون سند حتى من جبهته الداخلية. وهذه كانت حالة النظام العراقي قبيل الحرب التي انتهت باحتلاله. لا أشير بذلك إلى أن سوريا مهددة باحتلال آخر، بل إلى خطورة تداعيات ضعف الموقف السوري وعزلته الإقليمية والدولية، مضافاً إليه عزلته في الداخل. الإدارة الأميركية مصرة على عزل سوريا إلا إذا حققت مطالبها. والأفضل لسوريا أن تحقق مطالب شعبها ومطالب الشعب اللبناني أولا، وعلى هذا الأساس تبدأ في التعاطي مع المطالب الأميركية.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية